﴿وأزواجُهُ أُمهاتُهم﴾
أُمُّ سلمة

حسن الحاج

إنّ الكتابة عن أُمّ المؤمنين أُمّ سلمة وحياتها المضيئة، كتابة عن أطهر بيت عرفته الدُّنيا، وأعظم مكان صنعته السماء وباركته.. وكيف لا يكون كذلك وقد رعته يدُ الغيب؛ ليكون مبعث الطهر كلّه ونبع الخير كلّه، ومصدر العطاء كلّه، ومشعلاً للهداية، ومدرسةً للخُلق الكريم والأدب الرفيع وقدوةً ورحمةً للعالمين...

لقد كان هذا البيت مأوى الرسالة ومهبط الوحي، ومنزل القرآن ومبعث النور، الذي حمله صاحب هذا البيت رسول الله ﷺ الذي وصفه الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿**وإنّك لعلى خُلق عظيم**﴾ فكان هذا الخُلق يواكب البيت الأوّل للدين الجديد.. وصارت عفته محطّ اعجاب مَنْ حوله وصار القدوة لهم والاسوة الحسنة قربوا أم بعدوا عنه. ولما يتركه من آثار خطيرة ـ إذا ماعصفت حوله المغريات.. على مسيرة الرسالة والرساليين.. تولته السماء، وراحت تُرسل آياتها الكريمة مبينة أهمية هذا البيت ومرشدة نساءه إلى مكانتهنّ ودورهنّ الرسالي ووظيفتهنّ. وفي الوقت الذي ضاعفت السماء العذاب لمن تأتي منهنّ بفاحشة، جعلت الأجر مرّتين

لعملهنّ الصالح؛ لخطورة تواجدهنّ في هذا البيت وأنّهنّ القدوة، التي يجب أن تكون صالحة، والأُسوة التي يجب أن تتحلّى بأرقى درجات الإيمان والخلق الكريم.. ﴿يانساء النبيّ من يأتِ منكنّ بفاحشة مبيِّنة يضاعف لها العذاب ضعفين..﴾ ﴿ومن يقنت منكُنّ لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرّتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً﴾[1].

ثمّ راحت السماء تبيّن مكانتهنّ، وخطورتهم وتكاليفهن ما دامت قد ارتبطت حياتهنّ بهذا البيت الكريم نساءً لرسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿يانساء النبيّ لستنّ كأحدٍ من النساء إن اتقيتنّ فلا تخضعن بالقول فيطمعُ الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً ▣ وقرن في بيوتكنّ ولا تبرجن تبرجَ الجاهليةِ الأُولى وأقمنَ الصلاة وآتينَ الزكاة وأطعنَ الله ورسوله﴾[2] وكان لابدّ لهذا الطهر ولتلكَ العفة من ستر فكان الحجاب ﴿ياأيُّها النبيُّ قل لأزواجكَ.. يدنين عليهنّ من جلابيبهنّ..﴾[3].

لقد كانت أُمُّ سلمة أوّل نساء هذا البيت ـ بعد أُمّ المؤمنين خديجة بنت خويلد ـ رضوان الله عليها ـ وعياً لدورها الرسالي، كما كانت أكثر نساء النبي التزاماً بهذا كلّه وأسرعهنّ طاعة لله ورسوله، وعاشت حياتها الإيمانية ومسؤوليتها الرسالية ووظيفتها الشرعية على أكمل وجه حتّى وفّقت لأن تكون أفضل نسائه صلى الله عليه وآله وأصدقهنّ وأخلصهنّ في تحمّل أمانة هذا البيت الكريم ورسالته.. بعد أن قُدر لها أن تكون من نسائه صلى الله عليه وآله، وعاشت في كنفه، وظلّت في بيته كأتقى نسائه وأفضلهنّ بعد خديجة رضوان الله عليها طهارةً وعفّةً وإيماناً وجهاداً وعلماً.. فقد راحت تتغذى من علمه صلى الله عليه وآله وأدبه وسنّته، وتستقي من مصدر الوحي الذي مافارق منزلها.. وبرزت أُمّاً للمؤمنين بنصّ القرآن الكريم وهو وسام منحته السماء.. وحفظت امُّ سلمة ذلك ورعته ووعته مسؤوليةً كُبرى، وراحت تكثر الشكر لله تعالى على هذه النعمة.. مما جعلها مثلاً أعلى في إيمانها وعبادتها وورعها.. فنالت بذلكَ حبّ الله تعالى وحبّ رسوله صلى الله عليه وآله وأهل بيته

الطيبين، والمؤمنين جميعاً على مرّ الأجيال.

لقد كانت أمّ سلمة ترى هذه الامومة تكليفاً عظيماً ومسؤولية كبيرة لها حقوقها وعليها واجبات كثيرة لا بدّ من رعايتها، فكانت بحقّ أمّاً للمؤمنين بحنانها وشفقتها ورعايتها لهم واهتمامها بهم وخوفها عليهم وحرصها لهم...

لقد كانت ـ وكما عودتنا في حياتها المباركة ـ المبادرة إلى كلّ مايرضي الله تعالى ورسوله ولم تتطاول عليه ﷺ أبداً طيلة حياتها معه، كما تطاولت عليه بعضُ نسائه، وكان هذا سبباً لأذيته ﷺ، فحينما رأى رسول الله ﷺ أنّ بعض نسائه كنّ يخلقن لهُ المتاعب، ومطالبتهنّ بالنفقة والزينة حتى ورد قول بعضهنّ لهُ: لعلّك ترى أنّك إن طلقتنا أن لا نجد الأكفاء من قومنا يتزوجوننا.. وهذا الموقف دفع رسول الله ﷺ إلى أن يعتزلهنّ تسعة وعشرين يوماً، فكان موقفهنّ هذا سبباً لنزول آية التخيير ﴿**ياأيُّها النبيّ قل لأزواجكَ إن كُنتنّ تردن الحياة الدُّنيا وزينتها فتعالينَ امتعكنّ واسرحكنّ سراحاً جميلاً ◙ وإن كنتنّ تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإنّ الله أعدّ للمحسناتِ منكنّ أجراً عظيماً**﴾[٤].

فبادرت هنا امُّ سلمة قائلةً: قد اخترتُ الله ورسوله، فنالت بذلكَ سبق الاختيار هذا وفضله وأجره..ثمّ قامت بعدها بقية نسائه ﷺ، فعانقنه وقلنَ مثل الذي قالت امُّ سلمة، ولم تتخلف عن هذا إلّا واحدة وهي فاطمة بنت الضحّاك، فإنّها اختارت الدّنيا، ففارقها رسول الله ﷺ وبقيت في شقاء طول حياتها[٥].

في بيتٍ كريم:

هند (وقيل رملة وهو ضعيف) بنت سهيل أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشية، وكان أبوها جواداً كريماً سخياً، عرف بذلكَ في الجاهلية ولقبته العرب بزاد الركب حين كان هذا اللقب لا يُطلق إلّا على ثلاثة أو أربعة أشخاص، راحت الأمثال تضرب بجودهم، وسارت بذلكَ الركبان، كان هو أحدهم. فإذا ماكان أحدهم في سفر فإنّ رفقاء سفره مهما كثروا يتحمّل عنهم

زادهم وطعامهم طيلة الرحلة التي جمعتهم، ويرفض أن يحمل رفقاؤه شيئاً من ذلكَ.

قال صاحب لسان العرب في مادة زود[٦]..

وأزواد الركب من قريش أبو أمية بن المغيرة، والأسود بن المطلب بن أسد ابن عبد العزى، ومسافر بن أبي عمرو بن أمية، وكانوا إذا سافروا، فخرج معهم الناس، فلم يتخذوا زاداً معهم، ولم يوقدوا، يكفونهم ويغنونهم. وهناك من يقول: إنهم أربعة، فأضاف زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد[٧]

أمّا أمّها فهي عاتكة بنت عامر بن ربيعة بن مالك بن جذيمة أو خذيمة بن علقمة الكنانية من قبائل بني فراس الأشراف الأمجاد. وعلقمة جدّها كان يلقب بجذل الطعان، وذكرته كتب التأريخ بأنه رجل كريم يعطي ولا يبخل، يجود ولا يمنع.

وهناك من يقول: إنّ أمّها هي عاتكة بنت عبد المطلب بن عبد مناف عمّة رسول الله صلى الله عليه وآله. وقال آخر: إنّها ليست بنت عاتكة هذه وإنمّا هي بنت زوجها.

وعلى فرض كونها بنتاً لعاتكة بنت عبد المطلب أو بنتاً لزوج عاتكة فهي أُخت لكلّ من عبد الله وزهير ابني عمة رسول الله صلى الله عليه وآله...

كما أنّها أُخت لعمار بن ياسر الصحابي الجليل من الرضاعة، وكانت قد تزوجت أخاً لرسول الله صلى الله عليه وآله من الرضاعة أرضعتهما ثويبة، مولاة أبي لهب وترباً له وابن عمته برّة بنت عبد المطلب، وأحد أشراف بني مخزوم رأياً وشجاعةً وكرماً وجوداً، من المسلمين الأوائل وممن هاجر الهجرتين وهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وكان ذاك قبل أن يمنّ الله تعالى عليها لتكون أمّاً للمؤمنين بنصّ القرآن الكريم، بعد أن تلطّف الله تعالى عليها لتكون زوجة لحبيبه رسول الله صلى الله عليه وآله.

وكانت ـ كما يقول الذهبي ـ من أجمل النساء، وأشرفهنّ نسباً.

قالت امُّ المؤمنين عائشة ـ عن جمال امّ سلمة ـ:«لمّا تزوّج رسول الله ﷺ «امّ سلمة» حزنتُ حزناً شديداً لما ذكر لنا من جمالها، فتلطفتُ حتى رأيتها، فرأيتُ أضعاف ماوُصفت به».

إذن فكلّ من أصلها العريق ومنبتها الكريم أضفى على حياتها صفات عظيمة وخلقاً كريماً واكبها طيلة حياتها المباركة وميّزها عن غيرها من النساء..

يقول عنها أحمد خليل جمعة في موسوعته القيمة (نساء أهل البيت): لو أَلقينا الأضواء على حياة اُمّ سلمة قبيل الإسلام؛ لألفينا أنّها امرأة ذات شرف وطهر في أهلها، وذات نسب مُعرِقٍ في المعالي، ومنبتٍ كريم حسيب في قومها بني مخزوم، ثمّ هي بعد ذلكَ كلّه، ابنة واحد من كرماء قريش، وأنداهم كفّاً، وأجودهم عطاءً، فأبوها زاد الركب أحد الأجواد الذين سارت الأمثال والركبان بالحديث عن جودهم، فكانوا إذا سافروا، وخرجَ معهم الناس، لم يتخذوا زاداً معهم، ولم يوقدوا ناراً لهم، فيكفونهم ويغنونهم.

ولا ريب أنّ هند بنت أبي اُميّة، قد تأثرت بهذه البيئة الكريمة، التي عاشتها في مطلع فجر حياتها، وأرت مارأت من مكانة أبيها وكرامته وكرمه بين الناس، فلا عجب أن تكون هي الأُخرى، ذات يد معطاء، ونفس صافية، تعرف مكامنَ الرحمة، فتفجّر البّر في نفوس الناس تفجيراً[٨].

إسلامها وهجرتها:

في بداية نور الإسلام ورغم عناد الوليد بن المغيرة، زعيم بني مخزوم، أسلمت امُّ سلمة وزوجُها.. وبعد ما ثارت حفيظة مشركي مكة وعظم غيضهم واشتد أذاهم للمسلمين، هاجرت معه إلى الحبشة فكانا أوّل المهاجرين، فنالت بذلكَ وسام أولى المهاجرات.

يقول النووي في تهذيبه نقلاً عن ابن الأثير: أوّل مهاجرة من النساء اُمُّ سلمة[٩]. وماإن عادت وزوجها إلى مكّة من الحبشة مكان هجرتها الأولى حتى

استعدا للهجرة مرّة أُخرى إلى المدينة بعد أن توفي أبو طالب عـمّ رسـول الله ﷺ وحاميه، فعادت بذلكَ قريش إلى اضطهاد المسلمين، فصدر أمر رسـول الله ﷺ بالهجرة إلى المدينة، فكان زوجها أبو سلمة أوّل المهاجرين حيث هاجر قبل بيعة العقبة بسنة، وقد حلّت مصيبة مؤلمة بهذه الأُسرة الكريمة.

تقول الرواية عن أُمّ سلمة:

قالت: لما أجمع أبو سلمة على الخروج الأوّل إلى المدينة رحّل لي بـعيره، ثمّ حملني عليه وحمل معي ابني سلمة في حجري، ثمّ خرجَ يقود بي بعيره، فلما رأتـه رجال بني المغيرة.. قاموا إليه، فقالوا: هذه نفسكَ غلبتنا عليها، أرأيتَ صاحبتنا هذه علام نتركك تسير بها في البلاد؟

قالت: فنزعوا خطام البعير من يده، فأخذوني منه، وغضب عند ذلك بـنو عبد أسد، رهط أبي سلمة، قالوا: لا والله لا نترك ابننا عندها إذ نـزعتموها مـن صاحبنا، فتجاذبوا ابني سلمة بينهم، حتى خلعوا يـده، وانـطلق بـه بـنو أسـد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلقَ زوجي أبو سلمة إلى المدينة، ففرقَ بيني وبين زوجي وبين ابني. فكنتُ أخرج كلّ غداة فأجلس بالأبطح، فما أزال أبكي حـتى أمسي، سنة أو قريباً منها، حتى مرّ بي رجل من بني عمّي أحد بني المغيرة، فرأىٰ مابي فرحمني، فقال لبني المغيرة: ألا تحرجون من هذهِ المسكينة، فرقتم بينها وبين زوجها وبين ابنها؟ فقالوا لي: ألحقي بزوجك إن شئتِ، وردّ بنو عبد الأسـد عـند ذلك ابني.

فارتحلتُ بعيري، ثمّ أخذتُ ابني فـوضعته في حـجري، ثمّ خـرجتُ أُريـد زوجي بالمدينة، ومامعي أحد من خلق الله.. حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة [وكان مشركاً] أخا بني عبد الدار، فقال: إلى أين يابنت أبي أُميّة؟

قالت: فقلتُ: أريد زوجي بالمدينة.

قال: أوما معك أحد؟

فقلتُ: لا والله إلّا الله وابني هذا.

قال: والله مالك من مترك.

فأخذ خطام البعير، فانطلقَ يهوي بي، فوالله ماصحبتُ رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرمَ منه، حتى أقدمني المدينة.

فلما نظر إلى قرية بني عامر بن عوف بقباء قال: زوجك في هذهِ القرية ـ وكان أبو سلمة بها نازلاً ـ فأدخليها على بركة الله. ثمّ انصرف راجعاً إلى مكّة، وهنا كانت تقول امُّ سلمة: والله ماأعلمُ أهل بيت في الإسلام أصابهم ماأصاب آل أبي سلمة، ومارأيتُ صاحباً قطّ أكرم من عثمان بن طلحة، وهناك رواية أخرى تحمل كلاماً آخر لها تقول فيه:

«فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط أكرم منه، ولا أشرف منه، كان إذا بلغ منزلاً من المنازل ينيخ بعيري، ثم يستأخر عني، حتى إذا نزلت عن ظهره واستويت على الأرض، دنا اليه وحطّ عنه رحله، واقتاده إلىٰ شجرة وقيده فيها... ثم يتنحى عني إلىٰ شجرة أخرى فيستريح جوارها، فإذا حان الرواح، قام إلىٰ بعيري، فإذا ركبت، أخذ خطامه وقاده. (وقد أسلمَ في الحديبية وهاجر إلى المدينة، ثم شهد فتح مكّة، وتسلمّ مفتاح الكعبة من رسول الله ﷺ). هذا عن هجرتها إلى المدينة.

أمّا عن هجرتها الأُولى إلى الحبشة وكانت برفقة زوجها أبي سلمة، فقد تفرّدت روايتها عن تلك الهجرة بدقة وصفها لها وللدور العظيم الذي أدّاه جعفر بن أبي طالب رضوان الله عليه. تقول رواية أُمّ سلمة التي اتسمت بقوة بيانها وفصاحتها ودقة تصويرها لأحداثها حتى عدّت روايتها للهجرة من أوثق مصادر الهجرة.

تقول روايتها:

لما ضاقت على النبي ﷺ مكّة، وأوذي أصحابه، وفتنوا، ورأوا ما يصيبهم

من البلاء والفتنة في دينهم، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول الله ﷺ في منعة من قومه ومن عمّه، لا يصل إليه شيء مما يكره مما ينال أصحابه، فقال لهم رسول الله ﷺ: إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده، فالحقوا ببلاده حتىٰ يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه.

فخرجنا إليها أرسالاً حتىٰ اجتمعنا بها، فنزلنا بخير دار إلىٰ خير جار، أمنا علىٰ ديننا، ولم نخش ظلماً.

فلما رأت قريش أنا قد أصبنا داراً وأمناً، اجتمعوا علىٰ أن يبعثوا إليه فينا؛ ليخرجنا من بلاده، وليردنا عليهم. فبعثوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة، فجمعوا له هدايا ولبطارقته، فلم يَدَعُوا منهم رجلاً إلّا بعثوا له هدية علىٰ حِدَة، وقالوا لهما: ادفعوا إلىٰ كل بطريق هديته قبل أن تكلموا فيهم، ثمّ ادفعوا إليه هداياه، وإن استطعتما أن يردهم عليكم قبل أن يكلمهم فافعلوا.

أقول: كانت تخشىٰ قريش أن ينطلق الحقّ من لسانهم ووقع الذي كانت تخشاه.

فقدما علينا، فلم يبق بطريق من بطارقته إلّا قدّموا إليه هديته، فكلموه، فقالوا له: إنّا قدمنا علىٰ هذا الملك في سفهاء من سفهائنا، فارقوا أقوامهم في دينهم، ولم يدخلوا في دينكم، فبعثَنا قومُهم ليردهم الملك عليهم، فإذا نحن كلمناه فأشيروا عليه بأن يفعل، فقالوا: نفعل، ثم قدّموا إلى النجاشي هداياه، فكان من أحبّ ما يهدى إليه من مكّة الأَدَم. فلما أدخلوا عليه هداياه، فقالوا له: أيها الملك إن فتية منا سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه، وقد لَجأُوا إلىٰ بلادك، فبَعَثنا إليك فيهم عشائرهم، آباؤهم وأعمامهم وقومهم لتردهم عليهم، فهم أعلىٰ بهم[١٠] عيناً.

فقالت بطارقته: صدقوا أيها الملك، لو رددتهم عليهم وكانوا هم أعلىٰ بهم، فإنهم لم يدخلوا في دينك فيمنعهم أملك. فغضب، ثمّ قال: لا، لعمر الله، لا أردهم

عليهم حتىٰ أدعوهم وأكلمهم وأنظر ما أمرهم، قوم لَجأُوا إلىٰ بلادي، واختاروا جواري علىٰ جوار غيري، فإن كانوا كما تقولون رددتهم عليهم، وإن كانوا علىٰ غير ذلك منعتهم، ولم أدخل بينهم وبينهم، ولم أنعمهم عيناً فأرسل إليهم النجاشي فجمعهم ـ ولم يكن شيء أبغض إلىٰ عمرو بن العاص وعبدالله بن أبي ربيعة من أن يسمع كلامهم ـ فلما جاءهم رسول النجاشي اجتمع القوم فقال: ماذا تقولون؟ فقالوا: ماذا نقول؟! نقول والله ما نعرف وما نحن عليه من أمر ديننا، وما جاء به نبينا صلى الله عليه وآله كائن من ذلك ما كان، فلما دخلوا عليه كان الذي يكلمه منهم جعفر بن أبي طالب، فقال له النجاشي:

ما هذا الدين الذي أنتم عليه؟ فارقتم دين قومكم، ولم تدخلوا في يهودية ولا نصرانيه، فما هذا الدين؟

.. أيها الملك كنّا قوماً على الشرك، نعبد الأوثان، ونأكل الميتة، ونسيء الجوار، ونستحلّ المحارم.. وغيرها، لا نحلّ شيئاً ولا نحرّمه، فبعث الله إلينا نبياً من أنفسنا نعرف وفاءَه وصدقَه وأمانتَه، فدعانا إلىٰ أن نعبد الله وحده لا شريك له، ونصلَ الرحم، ونُحسِنَ الجوار، ونصلّي لله تعالىٰ، ونصوم له، ولا نعبد غيره، فقال: هل معك شيء مما جاء به؟ وقد دعا أساقفته فأمرهم فنشروا المصاحف حوله، فقال له جعفر: نعم، فقال: هلمّ فاتلُ عليَّ ما جاء به. فقرأ عليه صدراً من ﴿كهٰيٰعص﴾ فبكىٰ والله النجاشي حتىٰ أخضل لحيته، وبكت أساقفته حتىٰ أخضلوا مصاحفهم. ثم قال: إن هذا الكلام ليخرج من المشكاة التي جاء بها موسى؛ انطلقوا راشدين، لا، والله لا أردهم عليهم، ولا أنعمكم عيناً، فخرجنا من عنده، وكان أتقى الرجلين فينا عبدالله بن أبي ربيعة، فقال عمرو بن العاص: والله لأثنينه غداً بما أستأصل به خضراءهم[١١]. فلأخبرنه أنهم يزعمون أن إلهه الذي يعبد عيسىٰ بن مريم عبد.

فقال له عبدالله بن أبي ربيعة: لا تفعل.. فإنهم إن كانوا خالفونا فإن لهم رحماً

ولهم حقاً، فقال: والله لأفعلن، فلما كان الغد دخل عليه، فقال: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسىٰ قولاً عظيماً، فأرسل إليهم فسلهم عنه، فبعث إليهم، ولم ينزل بنا مثلها. فقال بعضنا لبعض: ماذا تقولون له في عيسىٰ إن هو سألكم عنه؟

فقالوا: نقول والله الذي قاله الله تعالىٰ، والذي أمرنا بـه نـبيناﷺ أن نـقول فيه :فدخلوا عليه وعنده بطارقته، فقال: ما تقولون في عيسىٰ بن مريم؟

نقول: هو عبدُ الله ورسوله وكلمتهُ وروحهُ ألقاها إلىٰ مريم العذراء البـتول، فدلى النجاشي يده إلى الأرض، فأخذ عوداً بين أصبعيه، فقال: ما عدا عيسىٰ بن مريم ما قلت هذا العـويد[١٢]، فـتناخرت بـطارقته، فـقال: وإن تـناخرتم والله، اِذهبوا، فأنتم شيوم في أرضي ـ والشيوم: الآمنون ـ مَن سبّكم غرم، ثمّ من سبّكم غرم، ثمّ مَنْ سبّكم غرم، فأنا ما أحب أن لي دَبْراً وأني آذيتُ رجلاً منكم ـ والدبر بلسانهم: الذهب ـ فوالله ما أخذ الله تعالىٰ مني الرشوة حين ردّ علي ملكي فآخذ الرشوة منه، ولا أطاع الناس فيّ فأطيع الناس فيه، ردوا عليهما هـداياهما، فـلا حاجة إلي بها، وأخرجا من بلادي. فرجعا مقبوحَيْن مردوداً عليهما ما جاءا بـه. فأقمنا مع خير جار، وفي خير دار.

فلم ينشب أن خرج عليه رجل من الحبشة ينازعه في ملكه، فوالله ما علمنا حزناً حزنّا قط كان أشدّ منه فرقاً من أن يظهر ذلك المـلك عليه، فـيأتي مـلك لا يعرف من حقنا ما كان يعرفه، فجعلنا ندعو الله ونستنصره للنجاشي، فخرج إليه سائراً... فهزم الله ذلك الملك وقتله، وظهر النجاشي عـليه... فـوالله مـا عـلمنا فرحنا بشيء قط فرحنا بظهور النجاشي، ثمّ أقمنا عنده حتىٰ خرج من خرج مـنا راجعاً إلىٰ مكة، وأقام من أقام...[١٣]

وأخيراً عادت أُمّ سلمة وزوجها ومعهما أولادهمـا (زيـنب وسـلمة وعـمر ودرة) الذين ولدوا هناك ـ على قولٍ ـ في دار هجرتها الحبشة، عـادوا جمـيعاً إلى مكّة، وكانت عودة المهاجرين إلى مكّة إمّا خفاءً أو بجوار أحدٍ من وجوه مكّة بعد

أن وردتهم أخبار بأنّ أهل مكة قد أعلنوا إسلامهم وآمنوا برسالة محمدﷺ، فلما وصلوا مكة عرفوا أن لا صحة لما سمعوا، فدخلوها متخفين أو لائذين بوجه من وجوه أهل مكة، فدخلت أم سلمة وزوجها في جوار أبي طالب بن عبدالمطلب وهو خاله.

وهناك من يقول: إنها وزوجها هاجرت هجرتين إلى الحبشة: الأولى في رجب سنة خمس من المبعث، والثانية بعدها بعدّة شهور بعد أن رجع المسلمون المهاجرون ظانين إسلام قريش، فاشتد أذى قريش لهم، فأذن لهم الرسولﷺ بالهجرة مرة ثانية.(١٤)

رحيل «أبو سلمة»

كان صحابياً مجاهداً هاجر الهجرتين، وشهد بدراً وقد أبلى فيها بلاءً حسناً، وبعدها شهد أُحداً فلم يقل بلاؤهُ فيها عن بدر، حتى ثخن بالجراح، فشفي منها إلّا جرح كان غائراً في عضده اندمل ظاهره دون باطنه، ومع هذا فقد استعمله رسولﷺ على المدينة مرّةً، ومرّة أُخرى قاد بأمر رسول اللهﷺ سرية، ومعه مائة وخمسون رجلاً إلىٰ قطن وهو جبل لبني أسد في نجد. نترك ابنه عمر يشرح لنا كلّ ذلك حيث قال: خرج أبي إلىٰ أحد فرماه أبو سلمة الجشمي في عضده بسهم فمكث شهراً يداوى من جرحه ثم برئ الجرح. وبعث رسول اللهﷺ أبي إلىٰ قطن (وهي جبل من أرض بني أسد ناحية فيد وفي الطبقات: بَيْد(١٥)). في المحرم، على رأس خمسة وثلاثين شهراً، فغاب تسعاً وعشرين ليلة ثم رجع. فدخل المدينة لثمان خلون من صفر سنة اربع. والجرح منتقض، فمات منه لثمان خلون من جمادى الآخرة سنة أربع من الهجرة.(١٦)

لقد كان الهدف من غزوة أبي سلمة هو منع بني أسد من الهجوم على المسلمين في المدينة بعد أن بلغه ـ أي بلغ رسول الله ـ أن قائدي بني أسد يحرضان قومهما لغزو المدينة ونهب أموال المسلمين فيها.(١٧) فكان لحملته دور كبير في إعادة ماخسره

المسلمون في أُحد من معنويات بعد أن نالت النصر على أعدائهم..

وراح هذا الصحابي الجليل يواصل جهاده في الوقت الذي لم يندمل جرحه الذي راح هو الآخر يتسع، مما دفع أبو سلمة إلى أن يلازم فراشه.

مما أنعمَ به الله تعالى على هذا المجاهد أن يكون رسول الله ﷺ وهو أخوه من الرضاعة وابن عمته وحبيبه حاضراً لحظات حياته الأخيرة يودعه ويسبل يديه ويغلق عينيه ويدعو له:

«اللهُمّ اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المقربين..»

ثمّ صلّى عليه. ويروى أنّ الرسول ﷺ كبّر في هذه الصلاة تسع تكبيرات، ولمّا انتهى من الصلاة سأله أصحابه عن ذلك فقال: لو كبرتُ على أبي سلمة ألفاً لكان أهلاً لذلك.

الزواج المبارك:

رحل عنها أبو سلمة، وتركها ذات عيال، أربعة أولاد: سلمة وقد وُلِدَ بالحبشة، وعمر ودرة (رقية) وبرة وقد غيّر اسمها رسول الله ﷺ إلىٰ زينب، قائلاً: لا تزكوا أنفسكم، الله أعلمُ بأهل البر منك (منكم)، سموها زينب.

وقد كبر سنّها، وراحت ـ مع كلّ آلامها على زوجها، الذي ماجفّت دموعها لفقده، فقد كانت تحبّه حبّاً عظيماً ـ ترعى صغارها، وتتذكر ماكان يوصيها به أبو سلمة في مرضه الذي توفي فيه، عبر حوارٍ دار بين الاثنين أحدهما كان مسجّى والآخر يذرفُ دموعه بألم وحرقة ومرارة.

قالت امُّ سلمة: بلغني أنه ليس امرأة يموت زوجها وهو من أهل الجنّة، ثمّ لم تتزوج بعده إلّا جمع الله بينهما في الجنّة، وكذلك إذا ماتت المرأة وبقي الرجل بعدها. فتعال اعاهدك على ألّا تتزوج بعدي، ولا أتزوج بعدك.

قال أبو سلمة: أ تطيعينني ؟

قلت: مااستأمرتك إلّا وأنا أريد أن أطيعك.

قال: فإن متُّ فتزوجي بعدي، ثمّ قال: اللهُمّ ارزق اُمَّ سلمة بعدي رجلاً خيراً مني لا يُحزنها ولا يؤذيها[١٨].

وإني لأذكر ما كان يقوله أبو سلمة ويدعو به وهو ما تعلمهُ من رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا أصاب أحدكم مصيبة فليقل: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، اللهُمّ عندكَ أحتسب مصيبتي، فأجرني فيها، وأبدلني بها ماهو خير منها.

وتقول اُمُّ سلمة: لما احتضر أبو سلمة قال: اللهُمّ اخلفني في أهلي بخير. فلما قبض قلتُ: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، اللهُمّ أحتسب عندكَ مصيبتي. وأردت أن أقول (وهنا توقفت اُمُّ سلمة قليلاً قبل أن تقول): وأبدلني بها خيراً منها، فقلت: ومن خير من أبي سلمة؟!

وفي رواية أنّها قالت: من هذا الفتى الذي هو خيرٌ من أبي سلمة؟ وفي اُخرى قالت: أي المسلمين خيرٌ من أبي سلمة، أول بيت هاجر إلى رسول الله ؟!

قالت: فما زلتُ حتى قلتها[١٩].

وهي في هذا الحال ـ وبعد أن انتهت عدّتها ـ تقدّم لخطبتها بعض كبار الصحابة: أبو بكر، فلم توافق عليهِ، وجاءها خاطباً عمر بن الخطاب وهو من أرحامها، يلتقي نسبه ونسبها في كعب، فعمر بن نفيل بن عبد العزى... بن عدي ابن كعب. وأمّا امُّ سلمة فهي بنت أبي اُميّة... بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب. في حين وجدتُ أنّ موسوعة أمّهات المؤمنين قد ذكرت أنّ في زاد المعاد في ج ١ ص ٤١ أنّ امّ سلمة خالة عمر بن الخطاب، فاُمّه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة، واُمُّ سلمة بنت سهيل بن المغيرة.

أقول: إنها هنا ـ وبحسب ما ذكره ـ ابنت عمّ امّه وليست خالته، ولهذا تقدّم لخطبتها[٢٠] فردّته بقوة.

أرسل لها رسول الله صلى الله عليه وآله من يبلغها برغبته في الزواج منها.

تقول: أرسل لي رسول الله صلى الله عليه وآله حاطب بن أبي بلتعة يخطبني لهُ.

فقلتُ: مرحباً برسول الله وبرسوله. أخبر رسول الله أني فيّ خلال، لا ينبغي لي أن أتزوّج رسول الله. وراحت بكلّ أدب وحياء وعفّة تبيِّن لهُ هذه الصفات.

وهي: أني أمرأة مُصبية. أي ذات أولاد. وأني غَيْرى. وأنه ليس أحد من أوليائي شاهداً. وأنا امرأة قد دخلت في السن...

فبعثَ لها رسول الله ﷺ: أمّا قولك: إني مُصبية، فإنّ الله سيكفيك صبيانك.

وأمّا قولك: إني غيرى، فسأدعو الله أن يُذهبَ عنك غيرتَك. وأمّا الأولياء، فليس أحد منهم، شاهد أو غائب، إلّا سيرضاني[٢١]. وأمّا ماذكرتِ من السن، فقد أصابني مثل الذي أصابك.

فتزوجها رسول الله ﷺ في السنة الرابعة وقيل الثالثة في العشرالأواخر من شهر شوال، وقد زوّجه إيّاها سلمة بن أبي سلمة ابنها، وأصدقها رسول الله ﷺ فِراشاً حشوه ليف، وخدماً وصَحفَةً ومِحَشةً[٢٢].

وبذلكَ صارت امُّ سلمة زوجة لرسول الله ﷺ، وولجت بيته المبارك، وكانت غرفتها غرفة امّ المؤمنين زينب بنت خزيمة، التي توفيت في أوّل العام الرابع للهجرة، وهي أول من توفي من نسائه اللاتي كنّ عنده بعد أمّ المؤمنين خديجة.

وفي أوّل يوم زواجها أخذت أمّ سلمة تتفحص حجرتها؛ لتعرف مابها، قالت:... فإذا جرة فاطلعت فيها، فإذا فيها شيء من شعير، وإذا برحى، وبرمة، وقدر، فنظرتُ فإذا فيها كعب من إهالة، فأخذت ذلك الشعير وطحنته، ثمّ عصدته في البرمة، وأخذت الكعب من الإهالة فأدمت به، فكان ذلك طعام رسول الله، وطعام أهله ليلة عرسه.[٢٣] وكانت المكافأة التي قدّمها رسول الله ﷺ لسلمة على ماقدمه هذا الأخير في زواج اُمّه من رسول الله ﷺ أن زوّجه رسولُ الله ﷺ أمامةَ بنت حمزة سيد الشهداء، وأقبل ﷺ على أصحابه قائلاً: ترون كافأته؟

حبّها للجهاد:

لم يكلف الإسلام المرأة بالقتال وجنّبها إياه، وإن تحمّلت أعباءَه وآثاره، فقد

كانت المرأة المسلمة تبادر إلى الخطوط الخلفية للمعارك وحتى الأمامية أحياناً، لتضميد الجرحى ومداواتهم وتجهيز المقاتلين بما يحتاجون إليه من ماءٍ وطعام وعدّةٍ وسداد.

وأُمُّ المؤمنين أُمُّ سلمة كانت واحدة من اللواتي قمن بدورهنّ هذا، ونالت شرف الجهاد والمجاهدين بعد أن صحبت رسول الله ﷺ في غزواته ومعاركه في غزوة المريسيع وفي فتح خيبر وفي حصاره للطائف وغزوة هوازن وثقيف، كما أنّها رافقته في رحلته الأُولى إلى مكّة حيث تمّ صلح الحديبية.

طالما تمنت هذه المرأة مع غيرها من المؤمنات أن يكلّفهنّ الله سبحانه وتعالى بالجهاد إلى جنب إخوانهنّ من المؤمنين طمعاً في أجره العظيم وثوابه الجزيل وشرفه الكبير في الدُّنيا والآخرة فقلن:

(ليتَ الله كتب علينا الجهاد، كما كتب على الرجال، فيكون لنا من الأجر مثل مالهم).

فكان قولهنّ هذا وامنيتهنّ سبباً في نزول الآية الكريمة: ﴿**ولا تتمنوا مافضّل الله بهِ بعضكم على بعض**﴾[٢٤].

منزلها مهبط الوحي:

كانت حجرتها مهبط الوحي، فقد وردَ أن من مكارمها أنها رأت جبرئيل عليه السلام وهو في صورة دحية الكلبي، فقد ورد عن الصحابي الجليل سلمان الفارسي رضوان الله عليه حيث قال: أُنبئتُ أنّ جبرئيل عليه السلام أتى النبيَّ ﷺ وهو عند أُمّ سلمة، فجعل يتحدّث، ثمّ قام، فقال النبيّ ﷺ لأمِّ سلمة: ومَن هذا؟

قالت: هذا دحية الكلبي.

قالت: والله ماحسبتُه إلّا إيّاه.[٢٥]

ومن مكارمها أيضاً نزول آية التطهير ﴿**إنما يريدُ اللهُ ليذهبَ عنكم الرجسَ أهلَ البيت ويطهركم تطهيراً**﴾ في بيتها. فبعد أن جمع رسولُ الله كلّاً من علي

وفاطمة والحسن والحسين وضمّهم تحتَ كساء واحد، نزل جبرئيل بهذه الآية المباركة عليهم.. تنظر امُّ سلمة إلى ماقام به رسول الله ﷺ من جمعهم وضمّهم تحت كساء واحد.. ولأنها على قدر كبير من المعرفة والمنزلة، ولأنها السباقة إلىٰ كلّ خير والىٰ كلّ ما ينفعها في آخرتها ودنياها أيضاً، ولأنها تعرف منزلة المجتمعين، راحت تتمنى بل طلبت الانضمام اليهم بقوة وأن تكون معهم؛ لتنال بذلك ممّا أعدّه تعالى لهؤلاء الصفوة من خير وبركة..

وكيف لا تتمنى أن تكون معهم وهي تسمع رسول الله ﷺ ودعاءه: اللهُمّ هؤلاء أهل بيتي، أذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً.

فتبادر إلى ذلك قائلة:

فأنا منهم يانبيّ الله؟!

ويأتيها الجواب من رسول الله ﷺ:

«أنتِ على مكانك، وأنتِ على خير» أي أنّ مكانك محفوظ اُمّاً للمؤمنين، وموقفك يتسم بالخير والصحة، ولكنّك لست من أهل بيتي الذين خصّهم الله تعالى بخصائص، وتفرّدوا بصفات اختارها الله لهم دون غيرهم، وميّزهم بها على جميع خلقه..

وكان لأمّ سلمة شرف رواية هذا كلّه حيث قالت: «دعا رسول الله حسناً وحسيناً، وفاطمة، فأجلسهم بين يديه ودعا علياً فأجلسه خلفه، فتجلّل هو وهم بالكساء، ثمّ قال: «هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً»».(٢٦)

فعن عطاء بن أبي رباح عن امّ سلمة: أنّ النبيّ ﷺ كان في بيتها، فأتته فاطمة ببرمة فيها جزيرة، فدخلت بها عليه، فقال ﷺ لها: ادعي زوجك وابنيك.. إلى أن قالت: فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية: ﴿**إنما يريدُ اللهُ ليذهبَ عنكم الرجسَ أهلَ البيت ويطهركم تطهيراً**﴾... ثمّ قالت: فأخذ فضل الكساء، فغشاهم به، ثمّ أخرجَ

يده، فألوى بها إلى السماء، ثمّ قال: «اللهُمّ هؤلاء أهل بيتي وخاصتي، اللهُمّ أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً».

قالت امُّ سلمة: فأدخلتُ رأسي البيت، فقلتُ: وأنا معكم يارسول الله؟ قال ﷺ: «إنّك إلى خير، إنّك إلى خير».

تحدثت رواية أُخرى عن أنّها من أهل البيت بنصّ رسول الله ﷺ، وهي ما كانت تسعى إليه طيلة عمرها المديد: حدّثوا أنه كان يوماً عندها وابنتها زينب هناك، فجاءته الزهراء مع ولديها الحسن والحسين عليهما السلام، فضمّهما إليه، ثمّ قال: ﴿**رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميدٌ مجيد**﴾.

فبكت امُّ سلمة فنظر إليها رسولُ الله ﷺ وسألها في حنو: مايبكيك؟

أجابت: يارسول الله خصصتَهم، وتركتني وابنتي.

قال: إنّك وابنتك من أهل البيت(٢٧).

ومن حبّها لأهل البيت:: أن جعلت ابنها عمر بن أبي سلمة في جيش عليّ عليه السلام. ولها مواقف أخرى سنأتي على ذكر بعضها.

أبو لبابة الأنصاري:

«إن نزلتم على حكمه (حكم رسول الله ﷺ) فهو الذبح».

هذا ماقاله أبو لبابة الأنصاري لزعماء يهود بني قريظة. فقد غزاهم رسول الله ﷺ في السنة الخامسة للهجرة وحاصرهم حتى جهدهم الحصار. قذف الله في قلوبهم الرعب، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ أن يرسل إليهم صاحبه «أبا لبابة ابن عبد المنذر الأنصاري؛ ليستشيروه في أمرهم. فأرسله إليهم، فلما رأوه قام إليه الرجال، وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه، فرّقَ لهم.

وسألوه: ياأبا لبابة، أترى أن ننزل على حكم محمد؟

فأجاب: نعم، إنّه الذبح، وأشار بيده إلى حلقه.

فما زالت قدماه من مكانهما حتى عرف أنّه خان الله ورسوله. وانطلق على

وجهه، فربط نفسه إلى عمود من عمد المسجد، وقال: لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله عليّ مما صنعت...

ولما بلغ رسول الله ﷺ خبره، وكان قد استبطأه، قال: أما أنه لو جاءني لاستغفرت له. فأمّا إذ فعل مافعل، فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه.

أو أنّ الانصاري المذكور كان واحداً من جماعة تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك على رواية ثانية.. وكلٌّ منهما ـ لا شك ـ ذنب كبير وخطير.

أَوثَق ـ لأحد السببين المذكورين ـ نفسه بسارية المسجد النبوي معترفاً بما جنته نفسه، وبقي هكذا ست ليال، كانت تأتيه امرأته في كلّ صلاة فتحمله للصلاة، ثمّ يعود فيرتبط بالجذع رافضاً أن يُطلقه غير رسول الله ﷺ.. وقد رفض هو الآخر إطلاقه حتى يأتيه أمر الله تعالى به، وكان رسول الله منتظراً لذلك.

وشاءت السماء أن يكون منزل امّ سلمة مهبطاً للوحي يحمل الآية الكريمة:

﴿.. **وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً**..﴾[٢٨].

تقول امُّ سلمة: سمعتُ رسول الله ﷺ من السحر وهو يضحك.

قالت: قلتُ: ممّ تضحك يارسول الله ﷺ، أضحك الله سنّك؟

قال: تيب على أبي لبابة.

قالت: قلت: أفلا أُبشره يارسول الله؟

قال: بلى، إن شئتِ.

فقامت على باب حجرتها، وذلك قبل أن يُضرب عليهنّ الحجاب.

فقالت: ياأبا لبابة، أبشر فقد تاب الله عليك.

قالت: فثار الناس إليه ليُطلقوه.

فقال: لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقني بيده..

فلمّا مرّ عليه رسول الله ﷺ ـ بعد نزول الآية ـ خارجاً إلى الصلاة، أطلقه[٢٩].

ومن بيتها أيضاً انطلقت توبة السماء على الثلاثة (كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع) الذين تخلفوا من الصحابة عن غزوة تبوك.

يقول واحد منهم وهو كعب بن مالك مبيناً دور أم سلمة وإحسانها اليه:

... ونهى النبيّ ﷺ عن كلامي وكلام صاحبي، ولم ينه عن كلام أحد من المتخلفين غيرنا، فاجتنب الناسُ كلامنا، فلبث كذلك حتى طال عليّ الأمر، وما من شيء أهم إليّ من أن أموت فلا يصلي عليّ النبيّ ﷺ، أو يموت رسول الله ﷺ فأكون من الناس بتلك المنزلة، فلا يكلمني أحد منهم، ولا يصلي عليّ، وفي رواية: أن رسول الله ﷺ قال: اقسم بالله، لا أطلقهم حتى أؤمر بإطلاقهم، ولا أعذرهم حتى يكون هو يعذرهم، فانزل الله توبتنا على نبيّه ﷺ حين بقي الثلث الآخر من الليل، ورسول الله ﷺ عند امّ سلمة، وكانت امّ سلمة محسنة في شأني، معنية في أمري. فقال رسول الله ﷺ: «يا أمّ سلمة تيبَ على كعب».

قالت: أفلا أرسل اليه فأبشره؟

قال: «إذاً يحطمكم الناس (يدوسونكم ويزدحمون عليكم) فيمنعونكم النوم سائر الليلة، حتى إذا صلى رسول الله ﷺ صلاة الفجر، آذن بتوبة الله علينا..[٣٠]

الرشيدة الشفيعة الحازمة

ذكرت مصادر التأريخ دورها الرشيد في السنة السادسة للهجرة، وقد صحبت الرسول ﷺ وهو يريد مكة للعمرة فصدته قريش ومنعته والمسلمين من دخول مكّة. وبعد أن تمّت كتابة شروط صلح الحديبية.. واضطربت الأُمور بين المسلمين، وكان الأمر ينذر بخطر جسيم بينهم..

تقول الرواية:... أمر النبيّ أصحابه أن يقوموا فينحروا ثمّ يحلقوا.. فما قام منهم رجل، فقال ذلك ثلاث مرات، ومامنهم من يستجيب.

فدخل على زوجه امّ سلمة التي كانت معه يومذاك، فاضطجع، فقالت: مالكَ يارسول الله ؟

فذكر لها مالقي من الناس، وأنه أمرهم بالحلق والنحر مراراً فلم يجيبوه، وهم يسمعون كلامه، وينظرون إلى وجهه الشريف.

قالت أُمُّ سلمة: التمس لهم العذر يارسول الله. إنّهم يرون الكعبة ويرون ديارهم، ثمّ يُحرَمون من دخول مكّة..

ثمّ قالت: يانبيّ الله أتحبّ ذلك؟

اخرج ثمّ لا تكلم أحداً منهم كلمةً واحدةً حتى تنحر بدنتك، وتدعو حالقك فيحلقك.. فإنّ ذلك سيقطع أملهم..

فقام فخرج فلم يكلّم أحداً حتى فعل ذلك، ونحر بدنته، ودعا حالقه..

فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً(٣١).

كما كانت شفيعة للمؤمنين وهذا جزء من مسؤوليتها كأمّ لهم، فقد شفعت لأخيها عند رسول الله ﷺ، حيث قالت للنبي ﷺ وهي تغسل رأسه: كيف ينفعني عيش وأنت عاتب على أخي؟

فرأت من النبي ﷺ رقّة، فأومأت إلىٰ خادمها، فدعت أخاها، فلم يزل بالنبي ﷺ يذكر عذره حتى رضي الله عنه...(٣٢)

وشفعت لأبي سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب وعبدالله بن أمية بن المغيرة وقد كانا من الذين يؤذونه ﷺ.

وقد كلمته أم سلمة فيهما ورجت أن يصفح عن زلتهما فيما مضى، فقالت: يارسول الله لا يكن ابن عمك، وابن عمتك وصهرك أشقى الناس بك. قال ﷺ: لا حاجة لي بهما. أما ابن عمي فهتك عرضي، وأما ابن عمتي فهو الذي قال لي بمكة ما قال.

قال أبو سفيان بن الحارث ـ لما سمع بذلك ـ: والله لتأذن لي، أو لآخذنّ بيد بُنيّ هذا، ثمّ لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً.

فلما سمع الرسول ﷺ بذلك رقّ لهما، فدخلا وأسلما. وسرت بذلك أم سلمة.

أما حزمها وقوة شخصيتها، فقد ظهرت بوضوح في مواقفها الحكيمة القوية من عائشة وحفصة وفي موقفها من قريبها عمر بن الخطاب، تقول بنت الشاطئ: وبدا واضحاً أنّ أم سلمة تعرف لنفسها قدرها، وتأبى على عائشة أو سواها المساس بكرامتها، وقد أعزّها مجدٌ عتيق موروث وآخر حديث مكتسب. وكذلك أبت على «عمر» أن يتكلم في مراجعة امهات المؤمنين لزوجهن الرسول صلى الله عليه وآله، وقالت له منكرةً: عجباً ياابن الخطاب، قد دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله وأزواجه.

قال عمر: فأخذتني أخذاً كسرتني به عن بعض ما كنتُ أجد.(٣٣)

الفتنة:

«استحي أن ألقى محمداً صلى الله عليه وآله هاتكةً حجاباً قد ضربه عليّ».

هذا جزء من كلمة طويلة قالتها لعائشة حينما هبّت هذه الأخيرة تقارع الإمام عليّاً عليه السلام وتقف بجانب طلحة والزبير تحرض الناس ضد الإمام من على ناقتها، فكان دورها خطيراً جدّاً فيما وقع من فتنة بين المؤمنين، وفيما وقع من بغي على الإمام عليه السلام في معركة الجمل في البصرة.

قالت لعائشة كلمات تتصف بالقوة والشدة: أيّ خروج هذا الذي تخرجين؟!

نصّ كلمتها لعائشة حينما جاءتها هذه الأخيرة؛ لتخادعها على الخروج للطلب بدم عثمان، وقد قالت عائشة لها: يابنت أبي أمية، أنتِ أوّل مهاجرة من أزواج رسول الله صلى الله عليه وآله وأنت كبيرة أُمهات المؤمنين، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يقسم لنا من بيتِك، أو كان يشير إلى بيتك عندما يؤتى بالهدايا، ومن بيتك يبعث إلينا بسهامك (بسهامنا)، وكان جبرئيل أكثر مايكون في منزلك..

فقالت امُّ سلمة: لَأَمَر ماقلت هذه المقالة!

ثمّ لما سمعت برغبتها أو مسيرها مع كلّ من طلحة والزبير؛ لشنّ حربهم ضدّ الإمام عليّ كتبت تقول: فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلّا هو.

أمّا بعد فقد هتكت سُدةً بين رسول الله ﷺ وأُمّته، وحجاباً مضروباً عليّ حرمته، قد جمع القرآن ذيولك فلا تسحبيها، وسكّر خفارتك فلا تبتذليها، والله من وراء هذه الأُمّة. لو علم رسول الله ﷺ أنّ النساء يحتملن الجهاد عهد إليك، أَما علمت أنّه قد نهاك عن الفراطة في الدين؟ فإنّ عمود الدين لا يثبت بالنساء إن مال، ولا يرأب بهنّ إن صدع. جهاد النساء غضّ الأطراف وضمّ الذيول وقصر الموادة. ماكنت قائلة لرسول الله ﷺ لو عارضك ببعض هذه الفلوات ناصبة قلوصك قعوداً من منهل إلى منهل؟ وغداً تردين على رسول الله ﷺ. وأقسم لو قيل لي: ياأُمّ سلمة أدخلي الجنة؛ لاستحييت أن ألقى رسول الله ﷺ هاتكةً حجاباً ضربه عليّ، فاجعليه سترك، وقاعة البيت حصنك فإنّك أنصح لهذه الأُمّة ماقعدتِ عن نصرتهم، ولو أنّي حدثتك بحديث سمعته من رسول الله ﷺ لنهشتِ نهشَ الرقشاء المطرقة، والسلام[٣٤]. وهناك رواية لكلمتها هذه تختلف عنها قليلاً.

ثمّ راحت أُمّ سلمة تعلن تأييدها للإمام علي ﷺ. تقول عنها بنت الشاطئ: ثمّ حاولت من بعده ﷺ أن تتجنب الخوض في الحياة العامة.. إلى أن كانت الفتنة الكبرى، فاندفعت تؤازر الإمام عليّاً، ابن عمّ الرسول، وزوج ابنته الزهراء، وأبا الحسن والحسين.

وودّت لو تخرج فتنصره، لكنّها كرهت أن تبتلى وهي أُمُّ المؤمنين بمثل ذاك الخروج، فجاءت «عليّاً» كرمّ الله وجهه، وقدمت إليه ابنها «عمر» قائلة:

ياأمير المؤمنين، لولا أن أعصي الله عزّ وجلّ، وأنّك لا تقبله منّي؛ لخرجتُ معك. وهذا ابني عمر، والله لهو أعزّ عليّ من نفسي، يخرجُ معك فيشهد مشاهدك.

وفعلاً شهد عمر مشاهد الإمام ﷺ ومنها معركة الجمل. واستعمله على فارس وعلى البحرين.

وممّا يدلُّ على حبّها لآل الرسول ﷺ وخاصة للإمام علي ﷺ ودفاعها عنه ﷺ ماكتبته إلى معاوية مستنكرة ماكتبه إلى عمّاله أن يلعنوا عليّاً على المنابر،

ففعلوا، فكان ما كتبته رضوان الله عليها: إنّكم تلعنون الله ورسوله على منابركم، وذلك أنّكم تلعنون عليّ بن أبي طالب، ومَن أحبّه، وأنا أشهد الله أنّ الله أحبّه، ورسوله.. لكن معاوية لم يلتفت إلى كلامها[٣٥].

وكيف لا يكون حبّها لآل البيت عظيماً ثابتاً وقد رافقت رسول الله ﷺ في حياته ومسؤولياته ووعت كلّ ماسمعته عنهم، خاصة وهو يلقي آخر خطبة له في حجّة الوداع... من كنتُ مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله..

استوقفتها هذه الكلمات كثيراً، وراحت تتأمل ما تحمله كلماته ﷺ هذه وغيرها بوعي وأناة حتى دخلت قلبها ومشاعرها، فثبت ولاؤها لأهل البيت. وانطلقت تقول كلمة الحقّ وتكشف الظُلم وتشجب كلّ فرقة، وتقيم دعائم الوحدة بين المسلمين على أساس حبّها لله تعالى ولمحمد وآله ﷺ.

علمها وروايتها:

كانت جليلة القدر، جزيلة الرأي، ملتزمة، تقية، عارفة بالقرآن الكريم وأحكامه، راويةً للسنّة الشريفة، شارحة لأحكامها، مبينة لها، طالما اجتمع حولها النساء يستمعن لها ويتعلمن منها وينقلن عنها، ويسترشدن بآرائها ويتحاكمن إليها كما تفعل بعض نساء النبي ﷺ وقد انتفع الرجال بعلمها وروايتها ونصائحها وآرائها حتى عدّت مصدراً من مصادر التفسير والفقه والرواية والتأريخ والسيرة النبوية..

وقد بلغ عدد ماروته من الأحاديث ثلاثمائة وثمانية وسبعين حديثاً.

يقول أحمد خليل جمعة عنها: وأُمُّ سلمة رضي الله عنها قد وعت الحديث الشريف، وتفقّهت بأُمور الدين والشريعة الغراء، حتى كانت تعدّ من فقهاء الصحابيات، وممّن يُرجع اليها في بعض الأُمور والأحكام والفتاوى، وخصوصاً فيما يخصّ فقه المرأة المسلمة، وفيما يتعلّق ببعض أحكام الرضاع، أو الطلاق، أو

ماشابه ذلك. وقد ورد أنّ سيدنا عبد الله بن عباس كان يُرسل، فيسألها عن بعض الأحكام.

كما كانت تعّد من جملة مَن يُرجع إليهم بالفتيا من الصحابة، وقد روى عنها كلٌّ من عبد الله بن عباس، وأبو سعيد الخدري وابنها عمر بن أبي سلمة، ومن النساء عائشة، وابنتها زينب بنت أبي سلمة. ومن التابعين؛ سعيد بن المسيب والشعبي، ومجاهد، وعطاء بن أبي رباح، وسليمان بن يسار، وعروة بن الزبير، وآخرون. ومن النساء طيرة أُمّ الحسن البصري، وهند بنت الحارث الفراسية، وصفية بنت شيبة، وصفية بنت محسن وغيرهنّ[٣٦].

ومن رواياتها:

استأذن أبو ثابت مولى علي عليه السلام على أُم سلمة، فقالت: مرحباً بكَ ياأبا ثابت، ثمّ قالت: ياأبا ثابت أين طار قلبك حين طارت القلوب مطيرها؟ قال: تبع علياً، فقالت: وفقت، والذي نفسي بيده لقد سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: عليٌ مع الحقّ والقرآن، والحقّ والقرآن مع عليٍّ، ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض.

قالت امُّ سلمة: أغدف[٣٧] رسول الله صلى الله عليه وآله على عليّ وفاطمة والحسن والحسين خميصة سوداء، ثمّ قال: «اللهُمّ إليك لا إلى النار، أنا وأهل بيتي». قالت: قلتُ: وأنا يارسول الله. قال: «وأنتِ».

وقريب من ذلك ماروته ابنتها زينب مع اختلاف يسير حيث قالت: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان عند امّ سلمة، فجعل حسناً في شقٍّ، وحسيناً في شقٍّ، وفاطمة في حجره وقال: ﴿**رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد**﴾[٣٨]. وأنا وامُّ سلمة جالستان، فبكت امُّ سلمة، فقال: «مايبكيك؟» قالت: يارسول الله خصصتهم وتركتني وابنتي. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّك [وابنتك] من أهل البيت»[٣٩].

ومما روته، قالت: قال لنا رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا حضرتم المريض أو الميت

فقولوا: خيراً، فإنّ الملائكة تؤمن على ماتقولون. فلما مات أبو سلمة أتيتُ النبيّ ﷺ فأخبرته، فقال: قولي: اللهُمّ اغفر لي وله، وأعقبني منه عقباً حسناً، فقلتُ ذلكَ. فأعقبني الله منه مَنْ هو خيرٌ منه رسول الله.

وعنها قالت: كان النبيّ ﷺ إذا خرجَ في سفر يقول: «اللهُمّ إني أعوذُ بكَ أن أزِل أو أزل»(٤٠).

عن زينب بنت أبي سلمة، عن أمّها أُمّ سلمة رضي الله عنها: قالت سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنما أنا بشر، وأنتم تختصمون إليّ، ولعلّ أحدكم أن يكون ألحنَ بحجته من بعض، فأقضي نحو ماأسمع منه، فمن قضيتُ لهُ بشيء من حقّ أخيه منه شيئاً، فإنما أقطعُ لهُ قطعةً من النار»(٤١).

ولما قدم ابن أبي جهل المدينة، فجعل يمرّ في الطريق، فيقول الناس: هذا ابن أبي جهل. فذكر ذلك لأمّ سلمة، فما كان منها إلّا أن ذهبت إلى رسول الله ﷺ فذكرت له ماسمعت: فخطب ﷺ الناس وقال: «لا تؤذوا الأحياء بسبب الأموات»(٤٢).

ولما سئلت: ماأكثر دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندك؟ قالت: كان أكثر دعائه: «يامقلب القلوب ثبِّت قلبي على دينك».

قالت: فقلتُ لهُ: يارسول الله: ماأكثر دعاءك «يامقلب القلوب ثبِّت قلبي على دينك» ؟!

قال: «ياأُمّ سلمة، إنّه ليس من آدمي إلّا وقلبه بين اصبعين من أصابع الله، ماشاء الله أقام وماشاء أزاغ»(٤٣).

ومما روته بحقِّ أخيها من الرضاعة عمار بن ياسر، الذي طالما رعته وغضبت لهُ حينما فعل به عثمان فعلته القذرة، شتمه وأمر به فأخرج من مجلسه...، وقد أثقلوه باللبن حينما شارك في بناء مسجد رسول الله ﷺ في المدينة، فقال: يا رسول الله قتلوني يحملون عليّ مالا يحملون.

وهنا قالت امُّ سلمة: فرأيتُ رسول الله ﷺ ينفض وفرته بيده، وكان رجلاً جعداً وهو يقول: «ويح ابن سميّة ليسوا بالذي يقتلونك، إنما تقتلك الفئة الباغية» وارتجز عليّ بن أبي طالب عليه السلام:

لا يستوي من يعمر المساجدا يدأب فيها قائماً وقاعداً
ومن يرى عن الغبار حائداً

فأخذها عمّار بن ياسر فجعل يرتجز بها(٤٤).

وفاتُها:

أبت امُّ سلمة ـ وقد عرفت جيداً قدر نفسها ـ أن تموت دون أن تترك خلفها دروساً ينتفع بها الآخرون، فحياتها بكلّ مفاصلها كانت مفعمة مليئة بالأحداث سواء قبل اسلامها وهي تعيش في بيت عرف ـ كما قلنا ـ بالكرم والشرف والإباء، أم في حياتها الأُولى مع أبي سلمة زوجةً صالحةً، أم في إسلامها وهجرتها وتصويرها لهجرتها حتى كانت روايتها أوثق وأدقّ روايات الهجرة، أم في هجرتها الثانية إلى المدينة وأحداثها وما رافقها من آلام..

أم في زواجها المبارك الذي اختارته السماء، وهي تعيش أطهر بيت مع أعظم إنسان عرفته الدنيا، لم تكن حياتها معهُ إلّا طاعة وإيماناً وتصديقاً وخدمة وجهاداً، حتى لم يعثر على خطإٍ لها على كثرة ماترتكبه النساء من أخطاء وما تصنعه من متاعب..

ورغم ماعانته من غيرة وحسد أُمّ المؤمنين عائشة وكذلك أمّ المؤمنين حفصة وماخلقتا لها من متاعب وصعاب. كانت تقابل كلّ ذلك بحكمة وهدوء حتى تبعد هذا البيت عن كلّ ما يتعب صاحبه ﷺ ويعكّر عليه حياته، أو يشغله عن مهامه العظيمة...

وبقيت محافظة على سيرتها وإن طال عمرها حتى تجاوز الثمانين عاماً،

فكانت آخر من توفي من زوجاته ﷺ ويبدو أنه قدر لهذه المرأة الصالحة المخلصة لزوجها ولأهل بيته أن تشارك رسول الله ﷺ عزاءه وحزنه، فقد بلغها استشهاد الإمام الحسين عليه السلام، فوجمت لذلك، وغشي عليها، وحزنت حزناً شديداً، ولم تلبث بعد ذلكَ إلّا يسيراً، ثمّ انتقلت إلى رحمة الله(٤٥).

وأمّا بنت الشاطئ فتقول: وتقدم العمر بأمّ سلمة حتى امتحنت، كما امتحن الإسلام وامته، بمذبحة «كربلاء» ومصارع الإمام الحسين وآل البيت صلوات الله عليهم، على الساحة المشئومة.

توفيت رضي الله عنها بعدما جاءها نعي الحسين بن علي عليه السلام(٤٦).

ويكفيها فخراً أنّ رسول الله توفي وهو راضٍ عنها وعن أولادها الذين تكفلهم برعايته وتربيته..

وبقيت هذه المرأة ورضا رسول الله ﷺ يلاحقها ويواكبها حتى غدت وبيتها «مركز الإشعاع العلمي والفقهي للصحابة والتابعين والعلماء من شتى الأمصار»(٤٧).

توفيت سنة إحدى وستين وقيل سنة اثنتين وستين في عهد يزيد بن معاوية، وشيعها المسلمون تشييعاً عظيماً حتى مرقدها الأخير في مقبرة البقيع في المدينة المنورة.

الهوامش:

(١) سورة الأحزاب: ٣١.
(٢) سورة الأحزاب: ٣٢ ـ ٣٣.
(٣) سورة الأحزاب: ٥٩.
(٤) سورة الأحزاب: ٢٨ ـ ٢٩.

(٥) البحار ٢٢: ٢٠٤، الميزان في تفسير الآية.
(٦) ابن منظور في لسان العرب ٤: ١٨١. وغيره من مصادر التاريخ.
(٧) ذكر ذلك في الهامش صاحب كتاب نساء أهل البيت عن المحبر ١٣٧ وعن المنمق: ٣٦٨ ـ ٣٦٩.
(٨) أحمد خليل جمعة ـ نساء أهل البيت: ٢٢٥ ـ ٢٢٦.
(٩) تهذيب النووي ٢: ٣٦٢.
(١٠) .. وأعلىٰ بهم عيناً أي أبصر بهم، وأعلم بحالهم. اللسان: علا.
(١١) خضراءهم: شجرتهم التي منها تفرعوا.
(١٢) العويد: أي مقدار هذا العود الصغير.
(١٣) مختصر تاريخ دمشق ٦: ٦٣، ٦٤، ٦٥.
(١٤) انظر طبقات ابن سعد ١: ٢٠٣ ـ ٢٠٧.
(١٥) معجم البلدان ٤: ٣٧٤.
(١٦) الطبقات ٨: ٨٧ ـ ٨٨.
(١٧) غزوات الرسول، لمحمود شيت خطاب.
(١٨) الطبقات ٨: ٨٧ ـ ٨٨.
(١٩) الطبقات ٨: ٧٨.
(٢٠) موسوعة امهات المؤمنين، هامش: ١٤٣.
(٢١) الطبقات ٨: ٨٧.
(٢٢) السيرة النبوية لابن هشام ٤: ٦٤٥.
المجشة: الرحى، يُقال: جششتُ الطعام في الرحى إذا طحنته طحناً غليظاً، ومنه الجشيش والجشيشة.
(٢٣) الطبقات ٨: ٩٢.
(٢٤) أعلام النساء ٥: ٢٢٤.
(٢٥) التاج الجامع للاصول ٣: ٣٨٣.
(٢٦) تاريخ الطبري، تاريخ ابن كثير، الترمذي في صحيحه.
(٢٧) انظر السمط الثمين: ٢٠.
(٢٨) سورة التوبة: ١٠٢.
(٢٩) السيرة النبوية (لابن هشام ٣: ٢٣٨، وأسباب النزول للواحدي: ٢٦٣ ومجمع البيان للطبرسي، الآية من سورة التوبة.
(٣٠) انظر المغازي في حديث كعب بن مالك. ومسند أحمد وغيرها...
(٣١) الطبري ٢: ٧٨٦.
(٣٢) الكامل في التاريخ ٢: ٣٧٨

(٣٣) انظر نساء النبي: ١٤٤ الدكتورة بنت الشاطئ.
(٣٤) العقد الفريد، ابن عبد ربّه ٣: ٩٦.
(٣٥) العقد الفريد، ابن عبد ربّه ٣: ١٢٧.
(٣٦) نساء أهل البيت: ٢٤٦ ـ ٢٦٥ وانظر الهوامش.
(٣٧) أغدف: بغين فدال ففاء: أُرسل وغطى، ومنه غداف المرأة، وهو ماتستر به وجهها: ١٥٤ من كتاب ازواج النبيّ للإمام محمد بن يوسف الدمشقي.
(٣٨) سورة هود: ٧٣.
(٣٩) ذكره صاحب كتاب أزواج النبي عن الطبراني في الكبير ٢٤: ٢٨١ ـ ٢٨٢ وغيره..
(٤٠) ربيع الأبرار ٤: ١٩٦.
(٤١) البخاري، ومسلم في الأقضية والنسائي في القضاء والشافعي في الأم..
(٤٢) ربيع الأبرار ٢: ٨٤١.
(٤٣) العقد الفريد ٣: ٢٢.
(٤٤) السيرة النبوية لابن هشام ٢: ١١٤.
(٤٥) الرسول في بيته: الدكتور أحمد شلبي: ٧٨.
(٤٦) نساء النبيﷺ: الدكتورة بنت الشاطئ: ١٥٠ ـ ١٥١.
(٤٧) نساء أهل البيت، أحمد خليل جمعة: ٢٦٩.